الفصل الخامس

الإســـلام والنفس الإنسانية

والنفس هي ذات الإنسان وتشتمل على صفات الخير كما تشتمل على صفات الشر.

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } (الشمس : ٧-٨) .

فكما أنها تتصف بـــ : الإيثار ، والتواضع ، والكرم ، والقناعـــة ، والعـــدل ... فإنها أيضا تتصف بالأثرة ، والكبر ، والبخل ، والطمع ، والظلم ، ... وتحتاج إلـــى السلامة بعيداً عن المخاطر ، والاحترام ، والتقدير ، وأن تكـــون شـــيئاً مـــذكوراً ، والاستقلال ، والحرية ...

تكريم الله تعالى النفس الإنسانية

لقد خلق الله تعالى النفس الإنسانية في أحسن تقويم .

{لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }(التين :٤)

{ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } (الذاريات : ٢١)

وجعل الله تعالى النفسَ آيةً على بديع خلقه الهادية إلى الإيمان بالخالق العظيم.

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } (فصلت : ٥٣)

ولقـــد كرم الله تعالى الإنســـان فخلقه بيده ، ونفخ فيه من روحـــه ، وأسجد لـــه الملائكة .

{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } (ص : ٧١-٧٢)

وسخر له ما في السموات والأرض ، وآتاه من كل ما سأل .

{ اللّهُ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ به مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } (إبراهيم : ٣٤)

ولقد كرم الله تعالى الإنسان ورزقه من الطيبات وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً .

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً } (الإسراء : ٧٠)

ونص القرآن الكريم في مواضع كثيرة على تساوى البشر جميعاً في أصل الخلقة فكل الناس خلقوا من نفس واحدة وهي آدم .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء } (النساء : ١)

{ وَهُوَ الذي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ }(الأنعام : ٩٨)

{هُوَ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} (الأعراف:١٨٩)

حرمة دم النفس الإنسانية

ولقد صان الله تعالى حرمة النفس الإنسانية فحرم قتلها وجعل الله تعالى من قتل نفسا واحدة ، بغير حق ، فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها ، صان حرمتها وحافظ على حياتها ، فكأنما أحيا الناس جميعاً .

{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} (المائدة:٣٢)

والكلام عن حرمة النفس الإنسانية عام لا يختص بالمسلم فقط عكس ما زعم وعاظ السوء من استحلال دم ومال غير المسلمين !! فراحوا يقتلون في خلق الله بغير حق وزعموا أن هذا جهاد في سبيل الله ، والله برئ مما يفعلون إنما هو جهاد

في سبيل الشيطان ، فالآية الكريمة نصت على عموم النفس الإنسانية ولم تخصص نفس المسلمين .

ويجدر بنا في هذا المقام وقد كثر اللغط في هذا الموضوع ، وكثرت الجرائم التي راح ضحيتها الأبرياء بسبب الفهم الخاطئ لبعض المتفيقهين المتنطعين ، كنت أقول يجدر بنا في هذا المقام أن نوضح من الذي يجب قتاله من أعداء الله والإسلام، ومن يجب صيانة دمائهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ؛ فقد أساء كثير من المسلمين فهم هذا الأمر وظنوا أن الإسلام حكّم السيف في علاقته بغير المسلمين فإما أن تسلم وإما أن تقطع رقبتك وهذا الفهم المناقض للإسلام بل المناقض لكافة الأديان والقوانين مازال مسيطراً على فهم بعض قساة القلوب خفاف العقول جهَّال الدين والواقع ، وهذا القول لا يقبل من مسلم أيام المد الإسلامي والفتوح فكيف يقبل من مسلم يعيش أيام الانحسار الإسلامي والاحتلال الصليبي والهوان !!

والعجيب أنه في الوقت الذي يعتذر فيه أعداء المسلمين عن أي قتلى أو جرحى من المدنيين أثناء قتالهم للمجاهدين من العرب[1] فإن بعض المسلمين يصرحون أن الإسلام يبيح قتل المدنيين من غير المسلمين بل وينسبون لأسامة بن لادن ، وهو شرف لم يدعيه ، قتل المدنيين في برج التجارة العالمي في أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ، ويقومون بمظاهرات تأييد له ، وتعلو الفرحة وجوههم ، ويقولون هذا هو الجهاد الإسلامي ، ويَصِم الغرب الإسلام كله بالإرهاب من جراء أقوال وأفعال هؤلاء المتخلفين " في فلوريدا في اللافتة التي يكتب عليها مواعيد الصلاة في الكنيسة – كتبت العبارة الآتية: " عيسى ينهي عن الاغتيال ، سفر متَّى ٢٦ – ٥٢، محمد يأمر بالاغتيال، سورة ٨ –٦٥ " [2] وتستغل أمريكا الموقف وتشن حربها ضد المسلمين الأبرياء المسالمين بدعوى أنهم إرهابيون ، ويساندها الغرب كله في غزو أفغانستان ، ثم تنفرد بقرار غزو العراق لنزع أسلحة التدمير الشامل من أيدي صدام الطاغية المسلم الإرهابي !

---

(١) هم يقولون ذلك بأفواههم فقط أنما هم ضالعون في هذه المذابح الموجهة للمدنيين راجع المذابح اليهودية للعرب منذ احتلال إسرائيل إلى اليوم في كتاب " اليهود والصليبيون الجدد " للمؤلف .

(٢) الأستاذ سليمان البطحى : أمين عام اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء ﷺ "ندوة البيان" www.albayan-magazine.com

وهكذا فبدلاً من نشر دعوة الإسلام الداعية إلى الحب والسلام والتسامح يلصق به بعض المسلمين تهماً هو بريء منها تنفر الناس منه ، ويضطر علماء الدين ورجال السياسة والمخلصون للدفاع عن الإسلام وبيان سماحته علَّهم يصححون صورة الإسلام في أذهان غير المسلمين وخاصة الغربيين لكن هيهات فقد تلقفت القوى المعادية للمسلمين الطامحة في احتلال أراضية هذه الدعاوى المغرضة ونشرتها واتخذتها ذريعة لحرب المسلمين واحتلال أراضيهم واستغلال مواردهم وخيراتهم وحسبنا الله ونعم الوكيل في تنطع هؤلاء المسلمين وكيد أولئك الغربيين .

أنواع الكفار ومن المستحق للقتل منهم :

لذا كان لزاماً علينا ونحن نتحدث عن حرمة قتل النفس والاعتداء عليها بيان من المستحقون للقتل ؟ ومن يجب على المسلمين صيانة دمائهم وأعراضهم وأموالهم ؟

أولاً لابد من " التفريق بين أنواع الكفار؛ فإنهم على أربعة أقسام : ذميون، ومعاهدون، ومستأمنون، وحربيون .

الذمي: هو من أقام بدار الإسلام إقامة دائمة بأمان مؤبّد .

والعهد : هو عقد بين المسلمين وأهل الحرب على ترك القتال مدّةً معلومة .

والمعاهدون : هم أهل البلد المتعاقد معهم .

وأهل الحرب : هم أهل بلاد الكفر التي لم يجرِ بينهم وبين المسلمين عهد .

وأما المستأمن : فهو الحربي الذي يدخل دار الإسلام بأمانٍ مؤقت لأمرٍ يقتضيه .

فالفرق بين الحربي والمعاهد أن الحربي ليس بينه وبين المسلمين عهد ولا صلح، بخلاف المعاهد .

والفرق بين الذمي والمستأمن أن الذمي هو من يقيم إقامة دائمة بأمان مؤبد، أما المستأمن فحربي دخل بلاد الإسلام لغرض متى انتهي ذلك الغرض خرج لبلده .

والمعاهد والذمي والمستأمن جميعهم معصومو الدم ، لا يجوز الاعتداء عليهم ولا التعرّض لهم . قال تعالى : { فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِم } (التوبة: ٤)

وعن عبد الله بن عمرو مرفوعاً " من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً " (رواه البخاري وأحمد والنسائي وابن ماجه)

وقد عاهد النبي ﷺ أصنافاً من المشركين كبني قريظة وبني النضير، وهادن

قريشاً في الحديبية على ترك القتال عشر سنين، وأن من جاء من قريش مسلماً رده النبي إليهم . وهذا كله معلوم في كتب السنة والسيرة ."[1]

قال اللّه تعالى {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً } (الإسراء : ٣٤)

{وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا } (النحل :٩١)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ } (المائدة : ١)

وحذر النبي من الغدر والخيانة العهد .

عن ابن عُمَرَ أنّ رَسُولَ الله ﷺ قال: "إنّ الْغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بنِ فُلاَنٍ ". (متفق عليه) .

وجعل النبي من صفات المنافقين الغدر وعدم الوفاء بالعهد .

وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّهُ عَنْهُما أن النبي ﷺ قال: " أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر" (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)

ولقد كان النبي مثالاً حيّاً على الوفاء بالعهد فقد رد النبي ﷺ من جاءه من قريش مؤمنا وفاءً بعهده مع قريش وقال النبي ﷺ لأبى جندل الذي أتاه مسلماً في الوقت الذي كان يكتب فيه صلح الحديبية " يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، أنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وأنا لا نغدر بهم " [2]

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه (أبو بصير) رجل من قريش وهو مسلم، وأرسلت قريش رجلين في طلبه " فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به،" واستطاع أبو بصير أن يقتل أحد الرجلين وعاد إلى المدينة وقال للرسول " يا رسول اللّه قد واللّه أوفي اللّه ذمتك قد رددتني إليهم، ثم نجاني اللّه تعالى منهم، فقال النبي ﷺ : "ويل أمه مسعر حرب (محرك لها وموقد لنارها)

---

(١) " أسئلة جريئة وأجوبة صريحة حول تفجيرات الرياض مسائل في أحكام الجهاد " إعداد موقع الإسلام اليوم ص من ٩ : ١٤

(٢) ابن كثير " البداية و النهاية " ج ٤ ص ١٩٣ .

لو كان معه أحد "، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فواللّه ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده اللّه والرحم، لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم" (١)

ويروى حذيفة بن اليمان سبب تخلفه عن القتال هو وأبيه في غزوة بدر وكان المسلمون في حاجة ماسة له فقد كان عدد المسلمين ثلث عدد الكفار فيقول : ما منعني أن أشهد بدراً إلا أنى خرجت أنا وأبى، حسيل. قال : فأخذَنا كفارُ قريش. قالوا: إنكم تريدون محمداً ؟ فقلنا: ما نريده. ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر. فقال" انصرفا. نفي بعهدهم، ونستعين الله عليهم " (رواه مسلم)

لقد أمر رسول الله ﷺ بالوفاء بعهد الكفار المحاربين وهو في مسيس الحاجة إلى رجل فإذا به يرفض اشتراك رجلين وفاءً بعهد الكفار الذين جاءوا لقتاله ويقول "نفي بعهدهم ونستعين الله عليهم" .

أي دين هذا ؟! وأي رجل هذا ؟! وأي خلق هذا ؟!

إنه دين الإسلام الذي جاء به صاحب الخلق العظيم محمد سيد الأنام ﷺ ، وكانت نتيجة الإيمان بالله والتمسك بأخلاق الإسلام وعلى رأسها الوفاء بالعهد أن نصر الله تعالى الإسلام والمسلمين وأذل الشرك والمشركين . وهكذا كان صحابة الرسول الكرام محافظين على الوفاء بالعهد فعن " جُوَيْرِيَةَ بْنَ قُدَامَةَ التَّمِيمِي قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ قُلْنَا أَوْصِنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ أُوصِيكُمْ بِذِمَّةِ اللَّهِ فَإِنَّهُ ذِمَّةُ نَبِيِّكُمْ وَرِزْقُ عِيَالِكُمْ " (رواه البخارى)

ولا يجوز للمسلمين بعد أن عاهدوا المشركين أن يطلبوا منهم الزيادة وفي هذا يقول الإمام الشوكانى : " لا يجوز للمسلمين بعد وقوع الصلح بينهم وبين الكفار

---

(١) تفسير ابن كثير " ج ٧ ج٣٥٤ .

على شيء أن يطلبوا منهم زيادة عليه فإن ذلك من ترك الوفاء بالعهد ونقض العقد وهما محرمان بنص القرآن والسنة "[1]

ولقد نهي الله تعالى عن قتال الكافر : الذمي والمعاهد والمستأمن بل أمر بالإحسان إليه وعدم ظلمه .

{ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (الممتحنة : ٨)

قال أكثر أهل التأويل: هي محكمة ، أي غير منسوخة ، واحتجوا بأن أسماء بنت أبى بكر سألت النبي ﷺ : هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة ؟ قال: "نعم" (متفق عليه). وقيل : إن الآية فيها نزلت . روى أن أبا بكر الصديق طلَّق امرأته قتيلة في الجاهلية، وهي أم أسماء بنت أبى بكر، فقدمت عليهم في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فأهدت إلى أسماء بنت أبى بكر الصديق قُرْطاً وأشياء؛ فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأنزل الله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين". ذكر هذا الخبر الماوردى وغيره، وأخرجه أبو داود الطيالسى في مسنده "[2]

ومن عظمة الإسلام أن ساوى بين حرمة الذمي ، هو من أقام بدار الإسلام إقامة دائمة بأمان مؤبّد من غير المسلمين ، وحرمة المسلم في الدم والمال والعرض .

قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} (المائدة : ٤٥) " قال الكوفيون والثوري: يقتل الحر بالعبد والمسلم بالذمي، واحتجوا بقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى" فعم، وقوله: { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ } (المائدة: ٤٥) ، قالوا: والذمي مع المسلم متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص وهي حرمة الدم الثابتة على التأبيد، فإن الذمي محقون الدم على التأبيد، والمسلم كذلك، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام، والذي يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمي، وهذا يدل على أن مال الذمي قد ساوى مال المسلم، فدل على مساواته لدمه إذ المال إنما

---

(١) الشوكانى " نيل الأوطار " الجزء الثامن باب الأمان والصلح والمهادنة .
(٢) تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٥٩ .

يحرم بحرمة مالكه. واتفق أبو حنيفة وأصحابه والثوري وابن أبى ليلى على أن الحر يقتل بالعبد كما يقتل العبد به ، وهو قول داود، وروى ذلك عن على وابن مسعود رضي اللّه عنهما، وبه قال سعيد بن المسيب وقتادة وإبراهيم النخعى والحكم بن عيينة " [1]

ويعرِّف النبي المسلم بأنه من سلم الناس – مسلم أو غير مسلم – من أقواله المحرمة : الغيبة والنميمة والكذب والبهتان والشتم واللعن ... ومن يده : بالقتل والضرب والعدوان والهدم .

ويجعل النبي المؤمن هو من يحافظ على دماء الناس، مسلمين وغير مسلمين، كما أن من صفات المؤمن المحافظة على أموال الناس كل الناس : المسلمين وغير المسلمين .

" المسلم من سلم الناس من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم " حديث صحيح (رواه النسائي)

ياله له من دين عظيم ذلك الدين الذي يأمر أتباعه بالمحافظة على أرواح الناس وأموالهم وأن يكفوا عنهم ألسنتهم وأيديهم ليت غير المسلمين يفهمون هذا بل ليت المسلمين يفهمون هذا ويطبقونه ، نقول هذا لأن بعض المسلمين يستحلون دماء غير المسلمين وأموالهم ويعتبرون غير المسلم عدواً مستباح الدم والمال ، ومن هؤلاء جماعة تسمى " الشوقيون " الذين دأبوا على قتل وسرقة غير المسلمين وذات مرة قرأ نائب أمير جماعة الشوقيين ويسمى " عادل محمد عبد الباقي " في كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي أن النبي في الهجرة سمح لكل الصحابة بالهجرة إلا لأبى بكر لأنه سيكون رفيقه في الهجرة " أما علىٌّ فإن رسول الله أمره أن يتخلف حتى يؤدى عنه الودائع التي كانت عنده للناس . وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته "[2]

وأدرك عادل محمد عبد الباقي خطأ ما كان يفعله ؛ فالنبي لم يستحل أموال الكفار الذين كذبوه وظاهروا عليه وأخرجوه من أحب بلاد الله إليه ، وجعل عليّاً رضى الله

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٤٦ .
(٢) محمد الغزالي "فقه السيرة " ص ١٧٣ .

عنه يتخلف عن الهجرة ليرد أماناتهم إليهم ! حاول عبد الباقي أن يقنع شوقي أمير التنظيم بما قرأه من سيرة المصطفي ﷺ لكنه لم يقتنع أو أقتنع لكنه قال : إن الأمر قد خرج من يده فكيف يَعْدِل عن رأيه الذي أفتى به الجماعة وقاموا بالاستيلاء على كثير من الأموال بمقتضاه ! لكن عبد الباقي إذ عرف الحق أبى أن يستمر في الباطل فترك شوقي وجماعته وسلَّم نفسه لرجال الأمن الذين اعتبروه شاهد ملك وأطلق سراحه بعد الإدلاء باعترافه أما شوقي ورفاقه فوقعوا صرعى بنيران أجهزة الأمن .

أرأيتم الفرق بين العالم الفاهم كالشيخ الغزالي ، وبين الجاهل المتطرف كشوقي ورفاقه من الجهلة الحمقى بل من المجرمين الذين اتخذوا من الدين ستاراً للممارسة جرائمهم .

توصية خاصة بأهل الكتاب :

وهناك توصية خاصة بأهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، بالإحسان إليهم .

فقد أمر الله في كتابه العزيز بالإحسان إلى أهل الكتاب حتى بعد إصرارهم على عدم الدخول في الإسلام والتمسك بدينهم ، وأحل للمسلمين مآكلتهم وتبادل الإهداء بالأطعمة .

بل يذهب الإسلام إلى ما هو أكثر من هذا حيث أحل الله تعالى زواج المسلم من الكتابية على ما للزواج من مودة ورحمة ، وحسن المعاشرة ، وائتمان على العرض، والأولاد ...

{ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (المائدة : ٥) .

وشدد النبي ﷺ في تحذيره من إيذاء أهل الكتاب بظلم أو بنقص حق أو بتكليفهم ملا يطيقون ، أو بالأخذ منهم شيئا بغير طيب نفس فقال "من ظلم معاهداً أو انتقصه حقاً، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه (أي خصيمه) يوم القيامة".حديث صحيح (رواه أبو داود) .

والمدهش أن النبي ﷺ لا يكتفي بحسن معاملة أهل الكتاب وهم أحياء فقط بل يراعى إنسانيتهم بعد الموت حتى لا يظن ظان أن الإسلام إنما كان يرمى من حسن معاملتهم وهم أحياء ترغيبهم في الدخول في الإسلام فقط فها هو النبي يقوم لجنازة يهودي عندما مرت به ويستنكر على من ظن أن نفس اليهودي بلا حرمة قوله .

وهذا في الصحيحين من حديث قيس بن سعد وسهل بن حنيف قالا " إن رسول الله ﷺ مرت به جنازة، فقام، فقيل: إنه يهودي، فقال أليست نفساً ؟ "(١)

ولم يشرع الإسلام القتال إلا رداً للعدوان على الدين أو النفس أو الوطن فيقول تعالى : { وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ } (البقرة : ١٩١)

ويجعل الله تعالى العدوان فقط على الظالمين أما المسالمون فلا عدوان عليهم مهما كانت عقائدهم . {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} (البقرة : ١٩٣)

وجعل الله تعالى تقوى الله هي مقياس التفاضل بين الناس وليس أحسابهم وأنسابهم وأموالهم .. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } (الحجرات : ١٣)

وعن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: "يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، ألا إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فليبلغ الشاهد الغائب " حديث صحيح (رواه أحمد)

فلا تفاضل في الإسلام إذن بين نفس ونفس إلا بالتقوى وليس بالجنس والمال والسلطان والجاه .

إن الإسلام لا ينتصر بعدد ولا بعدة – والمسلمون مأمورون بأن يعدوا ما استطاعوا من قوة – إنما يتنصر بقوة الإيمان وتمسك المؤمنين بتعاليم الإسلام

---

(١) " اليهود والصليبيون الجدد " للمؤلف دار الإبداع للصحافة والنشر ص ٥٢

ومبادئه وها نحن هؤلاء كثيرون " إن عدد المسلمون في العالم نحو ١,٨ مليار مسلم؛ أي ما نسبته ٢٥,٢٢ % من سكان العالم، تحتلون مساحة ١٩% من مساحة العالم تقريباً، ويعيشون في ٥٤ دولة إسلامية، وقيمون في ١٢٠ مجتمعاً في العالم ومع أننا كثير لكن " كثاء السيل " لأنه دب فينا الوهن " حب الدنيا وكراهية الموت " [١] كما أخبر سيد المرسلين .

والحربي هو الوحيد الذي يقتل لأنه جاء بجيوشه وعدته وعتاده معتدياً على دماء المسلمين ومغتصباً لأرضهم ومنتهكا حرماتهم بالقوة .

{ وَقَاتِلُواْ في سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ } (البقرة : ١٩٠)

قال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد: هي محكمة أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم . [٢]

ويدخل في ذلك تحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة أن رسول اللّه ﷺ كان يقول: " اغزوا في سبيل اللّه، قاتلوا من كفر باللّه، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع". وعن ابن عباس قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا بعث جيوشه قال: "اخرجوا باسم اللّه قاتلوا في سبيل اللّه من كفر باللّه، لا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع" (رواه أحمد وأبو داود) وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة في بعض مغازى النبي ﷺ مقتولة فأنكر رسول اللّه ﷺ قتل النساء والصبيان " .

ويجب على ولى الأمر أن يعد الجيوش للدفاع ضد المعتدين وأن على كل مسلم المساهمة بقدر ما يستطيع في صد المعتدين تحت إشراف أولياء الأمور وألا يتصرف منفردا حتى لا يفسد خطط وتدابير أولياء الأمور فيجب على كل مسلم راغب في مقاومة أعداء الله ألا يخالف أولياء الأمر المختصين بذلك وأن يلتزم بما يأمرونه به ولا يُتْرَك الأمر فوضى يفعل كل إنسان ما يراه صحيحاً فإن مثل هذا

---

(١) قال رسول الله " يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قيل يا رسول الله فمن قلة يومئذ قال لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت . " (رواه أحمد وأبو داود)

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٤٨ .

يشتت القوى وتكون عواقبه وخيمة كما يحدث الآن من بعض الأفراد والجماعات الذين يقتلون ويخربون ويدمرون دون موافقة أولى الأمر مما أساء للإسلام وللمسلمين جميعاً .

فإن طلب الأعداء الصلح فيجب إجابتهم إليه حقناً للدماء بشرط أن يكون السلام شاملاً وعادلاً .

{ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } (الأنفال:٦٠، ٦١)

{وإن جنحوا} أي مالوا {للسلم} أي المسالمة والمصالحة والمهادنة {فاجنح لها} أي فمل إليها، واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول اللّه ﷺ تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر.

وبعض الناس يريد أن يحاسب غير المسلمين على نواياهم فيقول لك إنهم يضمرون لنا الشر ويتربصون بنا الدوائر والله تعالى يعلمنا أن نعامل الناس بالظاهر وألا نتهم الضمائر فإن أراد أعداء المسلمين السلم سالمناهم وإن كان ينون خداعنا بهذا السلم فإن الله تعالى تكفل لنا بالنصر .

{ وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ }
(الأنفال : ٦٢)

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب قوله : " إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رَسُول ﷺ وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء، اللّه يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة "
(رَوَاهُ البخاري)

حرمة نفس المؤمن

هذا عن حرمة قتل غير المسلمين فإن كانوا مسلمين فالحرمة أشد فقد جعل الله تعالى عقوبة من يقتل مؤمناً متعمداً الخلود في النار وغضب من الله أكبر ولعن من الله أشد .

{ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } (النساء : ٩٣) . والنبي يجعل مجرد حمل السلاح على المسلم منافاة للإسلام .

وعن النبي ﷺ قال : " من حمل علينا السلاح فليس منا " (متفق عليه)

وحرم الله تعالى قتل النفس وجعل جزاء المنتحر الخلود في النار .

{ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً {٢٩} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً } (النساء :٢٩)

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبد " (متفق عليه)

وقال ﷺ "من قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة ومن لعن مؤمنا فهو كقتله ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله ومن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة " (متفق عليه)

وقال رسول اللّه ﷺ : "كان رجل ممن كان قبلكم وكان به جرح فأخذ سكيناً نحر بها يده فما رقأ الدم حتى مات، قال اللّه عزَّ وجلّ: عبدي بادرني بنفسه حرمت عليه الجنة " (متفق عليه)

القصاص في الإسلام

وجعل الله تعالى القصاص شريعة للناس فالنفس بالنفس ، والعين بالعين ...

{ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (المائدة : ٤٥) .

فمن قتل يقتل ولا يقتل أحد سواه ، رداً على العرب التي كانت تريد أن تقتل بمن قُتِل من لم يَقْتُل، وتقتل في مقابلة الواحد مائة، افتخاراً واستظهاراً بالجاه والمقدرة،

فأمر اللّه سبحانه بالعدل والمساواة، وذلك بأن يُقْتَل من قَتَلَ، فتفقأ العين بالعين والأنف بالأنف والسن بالسن وتقتص الجراح بالجراح .

بل حرم الإسلام كل اعتداء على المسلم

قال رسول اللّه ﷺ : " المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه التقوى ها هنا بحسب امرئ من الشر أن يحتقر أخاه المسلم " (رواه الترمذي)

فالمسلم لا يخون أحداً وخيانته لأخيه المسلم أشد ، وكذلك المسلم لا يكذب أحداً وكذبه على أخيه المسلم أشد ، والمسلم لا يعتدي على حرمة دم أحد وحرمة دم المسلم أشد ، ويكفيه من رذائل الأخلاق احتقاره أخيه المسلم .

فعن النبي ﷺ أنه قال: " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهي اللَّه عنه " (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)

ويجعل النبي شتيمة المسلم خروج عن طاعة الله ، وقتاله كفر بالله ، ورفع السلاح في وجهه موجب للطرود من رحمة الله .

وقال رَسُولُ اللَّه ﷺ :" سِبابُ المُسْلِمِ فُسوقٌ، وقِتالُهُ كُفرٌ " (متفق عليه)

وقال ﷺ " من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه" (متفق عليه)

أين هذا الهدى النبوي في حياة الناس ؟

إن المسلمين في عالم اليوم لّهُم أكثر شعوب الأرض ظلماً بعضهم البعض ،ومكراً بعضهم ببعض ، واستغلالاً بعضهم البعض ، وسباباً بعضهم البعض ، وإن المسلم ليتعرض في اليوم الواحد لعشرات الإيذاءات من إخوانه المسلمين بدأً من خروجه من بيته إلى عودته إليه ، إذ يؤذيه زحام المواصلات ، ودخان السجائر فيها وسباب الركاب ، يؤذيه ظلم كبار المسئولين وإهمال صغارهم ، يؤذيه فوضى المرور ، وقذارة الشوارع ، وضجيج مكبرات الصوت وآلات التنبيه ، يؤذيه الرشاوى والمحسوبية والواسطة في التعيين في الوظائف المهمة ، وقصر العلاوات والترقيات على المحاسيب والمنافقين ، يؤذيه اختلال الموازين ، وجشع التجار والبائعين ، يؤذيه عرى النساء وفساد الشباب .

أنواع النفس

النفس الأمارة بالسوء

وهي النفس المجبولة على الشهوات المهلكة والأهواء المضلة .

{ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (يوسف : ٣٥)

فهي التي تحرِّض صاحبها على المعاصي والآثام وتحضه على البغي والظلم .

{ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا } (النساء : ٧٩)

وقد تحضه على ارتكاب الجرائم والقتل وسفك الدماء بغير الحق .

{ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ }

ويجب على المسلم أن يقهر نفسه الأمارة بالسوء ويلزمها قبول ما جاء به الشرع، وينهاها عن اتباع الهوى حتى تكون الجنة مأواه .

{ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى }
(النازعات : ٤١- ٤٢)

النفس اللوامة

وهي نفس المؤمن تلومه على ما قد يقع فيه من أخطاء " كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون " (رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والدارمى)

كما تلومه على عدم استكثاره من الخير .

{ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } (القيامة : ٢)

قال مجاهد: " هي التي تلوم على ما فات وتندم ، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته، وعلى الخير لم لا تستكثر منه ".

النفس المطمئنة

وهي النفس الذاكرة لله دائما ، والنفس المطمئنة تعبد الله كأنها تراه وهذه المنزلة هي أسمى درجات الإيمان فطمأنينة القلوب وسكينتها منزلة أعلى من منزلة الإيمان { هُوَ الذي أَنزَلَ السَّكِينَةَ في قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ } (الفتح : ٤)

ولن يصل إليها المؤمن إلا بذكر الله تعالى الدائم واعتياده المساجد ومدارسته لكتاب الله تعالى{ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (الرعد : ٢٨)

ويقول النبي ﷺ : " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه " (رواه مسلم وأصحاب السنن)

لذا استحقت هذه النفس المطمئنة لطاعة الله وذكره أن تؤمّن يوم الفزع الأكبر والنجاة من عذاب القبر وتفوز بالفردوس الأعلى ورضوان من الله أكبر .

{ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِى فِي عِبَادِى وَادْخُلِى جَنَّتِى } (الفجر : ٢٧- ٣٠) .

قال رسول الله ﷺ " إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك يا ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا، وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدا من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟! قال : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً " (متفق : عليه) .

اختبار الله النفس بالخير والشر

ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الدنيا دار ابتلاء وامتحان للنفوس ليميز الله الخبيث من الطيب ، و ابتلاء الله تعالى يكون بالشر كما يكون بالخير أيضاً .

{ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } (الأنبياء : ٣٥)

وبعض الناس يظن إنعام الله تعالى عليه بمتاع الدنيا دليل رضا الله عنه ، كما يظن أن تضيق الله تعالى عليه في الرزق إهانة له ، وينكر الله تعالى على هؤلاء فهمهم الخاطئ هذا فيقول تعالى : { فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ } (الفجر:١٥- ١٧)

ويقول تعالى منكراً على الإنسان، إذا وسع عليه في الرزق ليختبره، فيعتقد أن ذلك من اللّه إكرام له، وهو ليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان .

{ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ } (المؤمنون : ٥٥- ٥٦) .

وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق ، يعتقد أن ذلك من اللّه إهانة له، قال اللّه تعالى: {كلا} أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا، فإن اللّه تعالى يعطى المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة اللّه في كل من الحالين، إذا كان غنيّاً بأن يشكر اللّه على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر . (١)

لا تزر وازرة وزر أخرى :

ومن رحمة الله أن تحاسب كل نفس بما قدمت ولا تأخذ بذنب غيرها .

{ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً } (البقرة : ٤٨) .
{ قُلْ أَغَيْرَ اللّه أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }
(الأنعام : ١٦٤)

ولقد ضل أقوام جعلوا المعصية إرثا يتوارثه الأبناء عن الآباء ، وجعلوا معصية آدم ، أكله من الشجرة المحرمة ، خطيئة توارثها بنو آدم عن أبيهم وتدنسوا بها قرونا طوال ، وأخيراً قرر الرب تطهير البشرية من هذه الخطيئة ، التي ارتكبها أبوهم ولا ذنب لهم فيها ، فأنجب ابناً وعاش هذا الابن بين الناس ولاقى كل ألوان العذاب من أجل أن يكفر عن الناس خطيئة أبيهم آدم ! وتنتهي حياته مصلوباً مكللاً بالشوك . فمن آمن بهذه العقيدة غفر الرب له خطيئة آدم وأورثه ملكوت السموات !! ومن لم يؤمن بها يظل مدنسا بخطيئة أبيه آدم ومصيره النار وإن لم يفعل أية معصية ، وفعل كل طاعة !!

وهذا الاعتقاد باطل في الإسلام لأنه فضلاً عن تنزيه الله تعالى عن أن يكون له ولد سبحانه فإن الله تعالى لا يأخذ أحداً بذنب غيره .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٣٩٨ .

{ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ } (يونس : ٥٢)

{ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَي } (النجم : ٣٩ – ٤١)

فالله تعالى من أسمائه العدل فكيف يحاسب الإنسان على ذنب ارتكبه آدم من آلاف السنين ! { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَي بِنَا حَاسِبِينَ } (الأنبياء : ٤٧)

{ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } (المدثر : ٣٨)

ثم ما هذا الذنب الخطير الذي يريدون أن يصموا به جميع البشر فضلاً عمن ارتكبه وهو آدم أبو البشر ؟

إن القصة غير ما توهموا فالله تعالى عندما خلق آدم ، لم يكن آدم لينزل إلى الأرض التي خُلق ليكون خليفة فيها إلا بعد أن يتعلم بعض الدروس المهمة لحياته في الأرض " أخذ الله تعالى آدم وزجه إلى الجنة ولم تكن هذه الجنة التي أخذ الله تعالى إليها آدم وزوجه " جنة الآخرة " التي بها الثواب والعقاب بل كانت " مكاناً " يستر آدم وزوجه ليتعلما فيها ويتلقيا التدريب على الخلافة في الأرض " (١)

أول هذه الدروس درس معرفة أسماء الأشياء الموجودة في الأرض { وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا } (البقرة :٣١)

هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل ... كذلك لا بد من دروس في أوامر الله تعالى ونواهيه { وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ } (البقرة : ٣٥)

ودرس آخر في وجوب معصية الشيطان مهما وسوس بكلام ظاهره فيه الرحمة وباطنه فيه العذاب { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى } (طه : ١٢٠)

ودرس في أن المعصية تكشف ستر الله تعالى وتفضح صاحبها { فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ } (طه : ١٢١)

---

(١) الشيخ محمد متولى الشعراوى " من فيض الرحمن في تربية الإنسان " ص ٦٠

ودرس في كيفية التوبة إلى الله من المعصية { فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } (البقرة : ٣٧) .

وهذه الكلمات هي { قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (الأعراف : ٢٣)

وكانت نتيجة الندم على المعصية والاستغفار والإصرار على عدم العودة أن تاب الله تعالى على آدم { فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } (البقرة : ٣٧) .

ولما أتم آدم دروسه أنزله الله تعالى إلى الأرض ليمارس المهمة التي خلقه الله تعالى من أجلها وهي عبادة الله تعالى وعمارة الكون { يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } (هود : ٦١) .

إن آدم تعلم حقائق الأشياء وسنن الله تعالى التي تحكمها وتضبط خيرها وشرها وتنظم نفعها وضرها .. وليس المراد بالتعليم أنه سبحانه أعطاه درساً في الكيمياء والطبيعة والفلك والطب ونحوها مما يضع في يده أزمة قوانين هذا لكون الأرض إنما المراد أنه بث فيه أسرار الفهم والتميز والاستعداد الفطري ما يكشف به تلك النواميس والسنن ويميز خصائص الأشياء بعضها من بعض .(١)

إن آدم عندما كان في الجنة لم يكن مكلفاً بعد لأنه كان يتعلم ، فخطؤه إنما كان قبل التكليف .

هذه حقيقة الخطيئة التي وصموا بها البشرية قروناً متطاولة ، ولم تغفر إلا بان أنجب ربهم ابناً ليكفر بصلبه وعذابه خطيئة آدم !

لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقبل توبته وإنما الصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة ولله أن يفعل ما يشاء وقد قال { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً } (٢)

---

(١) البهي الخولى " آدم عليه السلام " ص ١١٠

(٢) تفسير القرطبي " ج ١ ص ٣٢١

ولقد أكد القرآن الكريم في كثير من الآيات على أن الإنسان مجزى بعمله ولا يحمل وزر غيره { مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } (الإسراء : ١٥)

{ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } (فاطر : ١٨) .

الإنسان مسير أم مخير ؟

لقد هيأ الله تعالى النفس طائعة لصاحبها : تقوى أو فجوراً

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } (الشمس : ٧-٨) .

ومن دعائه ﷺ : " اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها " (رواه مسلم والنسائي)

لذا لا عجب أن تتصف النفس بعدة صفات متناقضة فهي تتصف بالإيثار ، والتواضع، والكرم ، والعزة ، والإرادة ، والكرامة ، والرضا بالقليل ، وحب الخير للناس ... كما إنها أيضا تتصف بالأثرة ، و التكبر ، والبخل ، و الذلة ، والعجز ، والطمع ، والحسد ...

وهي مهيأة لفعل كل هذه الصفات حسب رغبة صاحبها فهي كالطفل الذي ينشأ على ما كان قد عوده أبوه .

قول أبى ذؤيب :

" والنَّفْسُ رَاغِبةٌ إذا رَغَّبْتَها وإذا تُرَدُّ إلى قَلِيلٍ تَقْنَعِ "

وكما قال الإمام البوصيري :

والنفسُ كالطفلِ إن ترضَعْهُ شبَّ على حُبِّ الرضاعِ وإن تفطمْهُ ينفطمِ

ولقد ضل من ظن أن الإنسان مسير و لا حيلة فيما يفعل – من القدرية وغيرهم – فالإنسان مخير فيما كلفه الله تعالى به وما سيحاسبه عليه .

{ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهِي عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْى يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (النحل : ٩٠) .

فالإنسان مخير في إقامة العدل وفعل الإحسان وصلة الأرحام وفعل كل طاعة ، كما أنه مخير في فعل الفحشاء والمنكر والبغي وفعل كل معصية .

{ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }
(الأنعام : ١٥١)

فالإنسان مخير في الإيمان بالله أو الشرك به ومخير في بر الوالدين أو عقوقهما ومخير في قتل النفس بالحق وبغير الحق ومخير في فعل الفواحش واجتنابها ... وعلى الجملة مخير في فعل أو ترك كل ما أمر الله تعالى أو نهي عنه . وهذه الأوامر والنواهي هي مناط التكليف وعليها الجزاء والحساب .

أما ما لا اختيار للإنسان فيه فلا يحاسب عليه فلا حساب على الميلاد والموت، ولا الجنس والنوع ، ولا الشكل واللون .

إنما الحساب على ما للإنسان فيه اختيار كالأيمان والكفر إن بلغته رسالة نبي وإن لم تبلغه رسالة نبي كأهل الفترة فلا عذاب لهم { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}
(الإسراء : ١٥)

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }
(يونس : ٤٧)

والحساب إنما يكون على أوامر الله تعالى ونواهيه .

{ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً {١٢٢} لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً {١٢٣} ومن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً } (النساء : ١٢١- ١٢٤)

ومن عدل الله تعالى أنه لم يسو بين من آمنوا و عملوا الصالحات وبين من كفروا واجترحوا السيئات .

{ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ } (يونس : ٤)

مفهوم الشفاعة :

لا يقبل من الكافر ولا ممن غضب الله عليه شفاعة ولا فداء .

{ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ } (غافر : ١٨)

فالذين ظلموا أنفسهم فارتكبوا المعاصي والآثام وخالفوا شريعة الله فلن تنفعهم شفاعة الشافعين ولن يسمع فيهم شفاعة ولا يقبل منهم فداء حتى يأخذوا جزاءهم .

{ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ } (البقرة : ٤٨) .

{ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } (المدثر : ٤٨)

فلا شفاعة فيمن اتخذ دينه لهواً ولعباً وغرته الحياة الدنيا ونسي ذكر الله .

{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِى وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ}
(الأنعام : ٧٠)

{ اللَّهُ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في ستَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِى وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ } (السجدة : ٤)

حتى إذا أراد الله تعالى رحمة من أراد من أهل النّار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السّجود ، فقد حرّم الله على النّار أن تأكل أثر السّجود ، فيخرجون من النّار وقد احترقوا فيصبّ عليهم ماء الحياة فينبتون .

وجاء في الحديث الصحيح " أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون؛ ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر (جماعات)، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل "
(رواه مسلم وأحمد)

وعلى فرض أن هذا العاصي كان معه ما في الأرض جميعاً وأراد أن يفدى نفسه به من عذاب الله فلن يقبل منه .

{ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } (يونس : ٥٤)

فالشفاعة يوم القيامة لمن يستحقون الشفاعة من أهل الخلاص وهي مقيدة بأمرين :

أولاً : إذن الله تعالى للشافع بأن يشفع لقوله تعالى :

{ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ } (البقرة : ٢٥٥)

{ وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } (سبأ : ٢٣)

{ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً } (طه :١٠٩)

{ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } (يونس : ٣)

ثانياً : رضا الله تعالى عن المشفوع له لقوله تعالى :

{ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } (الأنبياء : ٢٨)

أما من غضب الله عليهم كالكفار ، ومرتكبي الكبائر المصرِّين عليها وماتوا دون توبة نصوحا من جميع الأمم فلا شفاعة تمنعهم من دخول النار ولقد توعدهم الله تعالى بها لما ارتكبوا من كبائر الذنوب وبعد أن يأخذ عصاة الموحدين جزاءهم يستشفع الله فيهم من ارتضى من عباده الصالحين وعلى رأسهم خير المرسلين فيدخلون الجنة ، أما الكفار والمشركين فخالدون مخلدون في النار ولن تنفعهم شفاعة الشافعين .

نقول هذا لأن كثيراً من المسلمين فهم الشفاعة خطأ فظن أنه مادام من أمة محمد فإنه حتماً سيدخل الجنة ولن يعرض على النار ولن يدخلها وإن قتل وزنا وسرق وارتكب كبائر الإثم والفواحش بفضل شفاعة النبي لن يدخل مسلم النار " فأمة محمد بخير " !

والآيات القرآنية شديدة الوضوح في دخول الكفار والمجرمين وأهل الكبائر النار من المسلمين أو من غيرهم ما لم يتوبوا توبة نصوحاً .

{ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } (مريم : ٨٦-٨٧) .

وإلا ما قيمة أوامر الله تعالى ونواهيه إن كان كل المسلمين ، بـــرهم وفـــاجرهم ، سيدخلون الجنة ولن يمسهم عذاب من النار! وأين عدل الله تعالى إن كـــان جميـــع المسلمين ، برهم وفاجرهم ، ينجون من عذاب الله ، فلمن يكون العذاب إذن للكفـــار والمشركين فقط ؟!!

وماذا يقولون في قوله تعالى { إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَـــوْنَ عَنْـــهُ نُكَفِّـــرْ عَـــنكُمْ سَـــيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا } (النساء : ٣١)

فما حكم من لم يجتنب كبـــائر ما نهي الله تعالى عنه ؟

هل سينجى من النار ويدخل الجنة أيضاً ؟!

وماذا يقولون في قوله تعالى { وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْـــمِ وَالْفَـــوَاحِشَ وَإِذَا مَـــا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُـــورَى بَيْـــنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } (الشورى : ٣٦- ٣٩)

وماذا يقولون في قوله تعالى : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِـــي الأَرْضِ لِيَجْـــزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـــائِرَ الإِثْـــمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ } (النجم : ٣١- ٣٢)

الحقيقة أن من ذهل عن آي الذكر الحكيم واكتفي بالمرويـــات دون فقـــه صـــحيح وعقل صريح فلن يصح له دين ولن يصح له عمل ويصير كالحمار يحمل أسفارًا .

إن كثيراً ممن يقرءون أحاديث الشفاعة ، أو تقرأ عليهم ، دون فهم صحيح لها في ضوء الهدى القرآني والهدى النبوي يسيء فهم أحاديث الشفاعة إذ لابد مـــن ضـــم الأحاديث بعضها إلى بعض والآيات الكريمة حتى يصح الفهـــم واســـتنباط الحكـــم الصحيح .

فكما بينا أن الله تعالى قد وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين اجتنبوا كبـــائر الإثم والفواحش بأن يتجاوز عن صغائر ذنوبهم ويدخلهم الجنة ، أما أهـــل الكبـــائر الذين عصوا الله والرسول ﷺ فليس لهم إلا النار سواء أكانوا من أمة محمد أو مـــن أمة غيره من الأنبياء صلى الله عليهم جميعا .

{وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُـــولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَـــذَابٌ مُّهِينٌ} (النساء : ١٤)

{ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ من بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا } (النساء : ١١٥) .

{ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } (الرعد : ١٨) .

إن الفهم المغلوط للشفاعة ليجرأ الناس على ارتكاب المعاصي والآثام ويغريهم بالفحش في القول والعمل .

فإذا جئنا إلى الأحاديث الصحيحة فهي ناطقة بما قرره القرآن الكريم ولا تخالفه وهي ناطقة وواضحة ببطلان هذا الفهم السقيم للشفاعة .

قال رسول الله ﷺ " إني فرطكم على الحوض من مر على شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوننى ثم يحال بينى وبينهم فأقول إنهم منى فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ؟ فأقول سحقا سحقا لمن غير بعدى (متفق عليه)..(سحقاً سحقاً) معناه : بعداً بعداً . والمكان السحيق البعيد. ونصب على تقدير ألزمهم الله سحقاً أو سحقهم سحقاً .

قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ: قَالَ رَسُولُ ﷺ : "إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَى مِنْكُمْ. وَسَيُؤْخَذُ أُنَاسٌ دُونِي. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي. فَيُقَالُ: أَمَا شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ؟ وَاللَّهِ مَا بَرِحُوا بَعْدَكَ يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ " (رواه مسلم) والأحاديث في هذا المعنى كثيرة وصحيحة .

أما حديث " شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " (الترمذي وأبو داود وغيرهما) .

وحديث "إني ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة "

(رواه الطبراني في الأوسط)

فهذان الحديثان وما في معناهما محمولان على : توبة مرتكب الكبائر عنها في الدنيا ، أو دخولهم النار وقضاء أجلهم فيها ثم يشفع النبي لهم فيخرجون من النار بإذن الله تعالى .

تأمل معي هذا الحديث وهو في الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ قال "إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم وذكر الحديث وقال فأقول:

يا رب، أمتي أمتي، فقال: انطلق ، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها فأنطلق فافعل ثم أرجع إلى ربى، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربى، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع. فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قبله أدنى وأدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربى في الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، سل تعطه واشفع تشفع فأقول: يارب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، قال: ليس ذلك لك، ولكن وعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي، لأخرجن من قال: لا إله إلا الله " (متفق عليه)

وهذا الحديث يبين أن الشفاعة التي هي لأهل الكبائر تكون بعد دخولهم النار لا قبل دخولهم فإن الله تعالى في كل مرة يقول للنبي فأخرجه منها أو أخرجه من النار فيخرج من النار بعد قضاء أجلهم فيها ما شاء الله تعالى ، ويكون الخروج على حسب المعاصي فمن قلت معاصيه خرج أولاً ثم الأكثر فالأكثر الفرق بين خروج كل جماعة كبير جداً بمقاييس الدنيا فلا يستهين الواحد بعذاب الله تعالى ولو لمدة قصيرة في النار فإن اليوم فيها بخمسين ألف سنة { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } (المعرج : ٤)

ونختم حديثنا عن الشفاعة بما قاله العلامة ابن القيم : " فقد تضمنت هذه الأحاديث خمسة أنواع من الشفاعة .

أحدها: الشفاعة العامة التي يرغب فيها الناس إلى الأنبياء، نبيّاً بعد نبي، حتى يريحهم الله من مقامهم.

النوع الثاني: الشفاعة في فتح الجنة لأهلها.

النوع الثالث: الشفاعة في دخول من لا حساب عليهم الجنة.

النوع الرابع: الشفاعة في إخراج قوم من أهل التوحيد من النار.

النوع الخامس: في تخفيف العذاب عن بعض أهل النار.

ويبقى نوعان يذكرهما كثير من الناس.

أحدهما: في قوم استوجبوا النار فيشفع فيهم أن لا يدخلوها. وهذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه.

وأكثر الأحاديث صريحة في أن الشفاعة في أهل التوحيد من أرباب الكبائر إنما تكون بعد دخولهم النار، وأما أن يشفع فيهم قبل الدخول، فلا يدخلون. فلم أظفر فيه بنص.

والنوع الثاني: شفاعته ﷺ لقوم من المؤمنين في زيادة الثواب، ورفعة الدرجات. وهذا قد يستدل عليه بدعاء النبي ﷺ لأبى سلمة، وقوله " اللهم اغفر لأبى سلمة، وارفع درجته في المهديين." وقوله في حديث أبى موسى " اللهم اغفر لعبيد أبى عامر، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك."

وفي قوله في حديث أبى هريرة " أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله" سر من أسرار التوحيد. وهو أن الشفاعة إنما تنال بتجريد التوحيد، فمن كان أكمل توحيداً كان أحرى بالشفاعة. لا أنها تنال بالشرك بالشفيع. كما عليه أكثر المشركين وبالله التوفيق "[1]

فجزاء الله عدل وقضاؤه سبحانه إنصاف فكيف يتصور إنسان مؤمن بالله العادل المقسط أن الله تعالى يجبر بعض الناس على الإيمان والطاعة ، ويجبر آخرين على الكفر والمعصية فيدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار ، أو يسوى بين المترفع عن الصغائر ومرتكب الكبائر في دخول الجنة والنجاة من النار !!

هذا مستحيل في حق الله تعالى القائل :

{ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } (الأنبياء : ٤٧) .

وهناك عشرات الآيات ينفي فيها الله تعالى الظلم عن نفسه .

{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ } (هود : ١١١)

---

(١) ابن القيم " تهذيب سنن أبى داود " باب الشفاعة .

إذن الإنسان مخير فيما سيحاسبه الله تعالى عليه ومما سيحاسبه الله تعالى عليه تزكية نفسه من فجورها من : الطمع ، والكبر ، والحسد ، والجبن ، والبخل ...

هل بمقدور الإنسان أن يزكى نفسه ويطهرها من فجورها ؟

والإجابة بالطبع نعم في وسعه و إلا ما كلفه الله تعالى بهذا فالله تعالى لا يكلف بمستحيل إنما يكون التكليف في إطار الوسع و المستطاع .

{ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } (البقرة : ٢٨٦)

فباستطاعة الإنسان أن يزكى نفسه من شرورها وبمقدوره أن يحليها بمكارم الأخلاق فإن فعل هذا فقد أفلح .

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} (الشمس : ٧-١٠) .

أي أفلح وفاز من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دس نفسه في المعاصي .

وكثير من الناس من يعتذر عن سوء خلقه بسوء طبعه وأنه هكذا خلقه الله ولا حيلة له في سوء خلقه وكأن سوء الخلق غريزة تتأبى على المجاهدة والتغيير ، والحقيقة أنه إذا قوى الإيمان في القلب سهل على الإنسان تزكية طبعه الذي جبل عليه ومجاهدة نفسه الأمارة بالسوء ، أما من ساء خلقه فاعلم أنه لا إيمان له ، فبقدر الإيمان يكون حسن الخلق وفي ذلك يقول النبي : " إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وإن حسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة " حديث صحيح (رواه البزار) " فكمال الإيمان يوجب حسن الخلق .

ولو كان حسن الخلق غريزة لا اكتساب فيها ما أمر الرسول ﷺ به فعن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ : (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) (رواه أحمد والترمذى والدارمى) .

ولو كان سوء الخلق طبع لا تفلح مجاهدة معه ما أبغض الله تعالى الفاحش البذيء.

فعن أبى الدرداء أن النبي ﷺ قال: " ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء " (رواه الترمذي وابن حبان)

ولو كان حسن الخلق طبع لا فضل لصاحبه في جلبه ، وسوء الخلق طبع لا حيلة لصاحبة في دفعه لكان دخول صاحب الخلق الرفيع الجنة ودخول صاحب الخلق الوضيع النار لو كان ذلك كذلك لكان ظلما وحاشا لله أن يظلم .

{إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} (النساء : ٤٠)

قال القرطبي في " المفهم " الخُلُق جبلة في نوع الإنسان ، وهم في ذلك متفاوتون، فمن غلب عليه شيء منها إن كان محموداً وإلا فهو مأمور بالمجاهدة فيه حتى يصير محموداً، وكذا إن كان ضعيفا فيرتاض صاحبه حتى يقوى." (١)

والنفس الإنسانية ، كما بينا ، تتصف بعدة صفات مختلفة والناس متفاوتون في حظهم من صفات النفس وهذا ما يجعل الناس مختلفين ولا يوجد اثنان متماثلين لا في الخلْق ولا في الخُلُق – تبارك الله الخلاق العظيم – فلقد خلق الله تعالى الناس مختلفين في الأخلاق و السلوك من أجل إعمار الأرض حتى يكمل بعضهم بعض ويحتاج بعضهم لبعض .

{ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } (هود : ١١٨– ١١٩)

قال الحسن ومقاتل، وعطاء : الإشارة للاختلاف أي وللاختلاف خُلُقهم .

وهذا الاختلاف سنة كونية فقد خلق الله تعالى جميع المخلوقات مختلفة فمن حيث الجنس : إنس وجن وملائكة وهناك حيوانات ونباتات وجماد ، ومن حيث النوع هناك ذكر وأنثى ، أو سالب وموجب في كل جنس ، وهناك اختلاف في كل نوع فالإنس مختلفون في الأعراق واللغات والألوان ...

{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ } (الروم : ٢٢) .

والناس وإن اتحدت أعراقهم ولغاتهم وألونهم فهم يختلفون في عاداتهم وإن اتحدت عاداتهم فهم يختلفون في أخلاقهم وإن تقاربت أخلاقهم فهم يختلفون في شخصياتهم

---

(١) نقلاً عن ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١٠ ص ٤٥٩

فكما أن لكل إنسان بصمة أصابع وبصمة صوت ، وبصمة حمض نووى ، وبصمة شكل وملامح ... فإن له بصمة شخصية وأخلاقية أيضاً .

وكذلك كل جنس من الأجناس يتفرع إلى أنواع وكل نوع يتفرع إلى أشكال وأنوع وكهذا دواليك .

تأمل هذه الآيات البينات التي يوضح فيه البديع جل وعلا دلائل قدرته وعظيم آلائه ونعمه تجد الاختلاف والتنوع يسم كل مخلوقاته جل وعلا ، فهناك المساء والصباح ، السموات والأرض ، والعطشى والظهيرة ، الحي والميت ، الذكر والأنثى، والليل والنهار ، والخوف والطمع ...

ويبن الله تعالى أنه لولا هذا الاختلاف في البشر لفسدت الأرض ، كما أنه لولا هذا الاختلاف في بقية المخلوقات لفسدت الأرض أيضاً فلا يصلح نهار بلا ليل ولا أرض بلا سماء ولا ذكر بلا أنثى ... ولولا اختلاف أخلاق الناس وتنوع ميولهم ورغباتهم لفسدت الأرض كذلك .

{ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } (البقرة : ٢٥١) .

{ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا } (الحج : ٤٠) .

ولكن لابد من تنظيم لهذه الأخلاق المتباينة وبيان المحمود منها والمذموم وبيان حدود كل خلق حتى لا تسود الفوضى ويعم الخراب ويصبح هذا الاختلاف المفيد لعمارة الأرض تناقضاً يدمر الحياة ويفسدها لذا أنزل الله تعالى الشرائع والأديان لتهذيب النفوس وتقويم المعوج منها وهذا هو المقصود من" الدفع " في الآيتين السابقتين وهذا الرأي هو ما حسنه الإمام القرطبي حيث يقول : " قيل : هذا الدفع بما شرع على ألسنة الرسل من الشرائع ، ولولا ذلك لتسالب الناس وتناهبوا وهلكوا، وهذا قول حسن فإنه عموم في الكف والدفع وغير ذلك فتأمله " [1]

ويؤكد ذلك علماء النفس حيث يقولون إن " الفرد يتعلم خلال عملية النمو أن يسلك ويتصرف وفقا لما يتوقعه منه المجتمع ويقبل الفرد قيم المجتمع و معاييره دون

---

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٦١

تفكير كثير ودون وعى بان هذه المعايير تختلف عن مجتمع آخر فإذا كان المجتمع الذي نعيش فيه يقيم النظافة والسرعة والعمل الجاد فإننا نحاول أيضا أن نتحلى بهذه الخصال ويصبح الأفراد الذين يتحلون بها موضع تقديرنا وإعجابنا ... ولعل هذا يوحى بوجود طابع ميز للشخصية يميز شخصيات الأفراد في كل مجتمع من المجتمعات فنجد أن الطابع الغالب للشخصية في أحد المجتمعات هو العدوانية بينما نجد أن الطابع الغالب في مجتمع آخر برود الأعصاب وفي مجتمع ثالث السلبية ، ويتمشى ذلك مع الأفكار الشائعة عن الطابع القومي فيقال فمثلاً أن الفرنسيين يختلفون عن الإنجليز وهؤلاء يختلفون عن الصينيين ..." (١)

ومهمة الأديان والشرائع أن تجعل صفات النفس في حالة توازن ووسطية حتى تؤدى دورها المنوط بها في عبادة الله وعمارة الأرض فمثلا الإنفاق إن زاد عن حد الاعتدال صار إسرافا وتبذيرا وإن قل كان بخلا وتقتيرا { وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا } (الفرقان : ٦٧)

والحمية إن زادت عن حد الاعتدال صارت اندفاعا و تهورا وإن قلت كانت جبنا وضعفاً ... ، يقول الله تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } (البقرة : ١٤٣)

فالفضيلة وسط بين رذيلتين . قال مطرف بن عبد الله : الحسنة بين سيئتين.

وقال الشاعر :

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

ولكي يصل الإنسان إلى حسن الخلق الذي جاء الدين به فعليه أن يجاهد نفسه ولا يستسلم لصفات نفسه الدنيئة وبقدر مجاهدته للتخلي عن فجور نفسه ومجاهدته للتحلي بالتقوى يكون الأجر والثواب والمنزلة الرفيعة والدرجات ، وبقدر ما يستسلم الإنسان لرغبات نفسه وشهواتها يكون الجزاء والعقاب والمنزلة الوضيعة والدركات .

لقد جمع الله سبحانه وتعالى لنبيه الحالات الثلاث : الفقر والغنى والكفاف ، فكان الأول أول حالاته ﷺ فقام بواجب ذلك من مجاهدة النفس ، ثم فتحت عليه الفتوح فصار بذلك في حد الأغنياء فقام بواجب ذلك من بذله لمستحقه والمواساة به

---

(١) د. محمد فرغلى فراج " مدخل إلى علم النفس " ص ٨٤ دار الثقافة للنشر والتوزيع

والإيثار مع اقتصاره منه على ما يسد ضرورة عياله، وهي صورة الكفاف التي مات عليها ، وهي حالة سليمة من الغنى المغطى والفقر المؤلم، وأيضاً فصاحبها معدود في الفقراء لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا ؛ بل يجاهد نفسه في الصبر عن القدر الزائد على الكفاف ، فلم يفته من حال الفقر إلا السلامة من قهر الحاجة وذل المسألة . (١)

ويجعل النبي صدقة الشحيح الذي يخشى الفقر ويرجو الغنى أعظم أجراً من صدقة الكريم الذي لا يخشى الفقر .

فعن أبى هريرة قال : قال رجل يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً ؟ قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان . " (متفق عليه)

ويجعل الله تعالى من صفات الإبرار أنهم يطعمون الطعام للمساكين والفقراء والأسرى على شدة حبهم له وحاجتهم إليه وما فعلوا هذا وخالفوا هواهم من أجل ثناء أو شكر أو مصلحة يرجونها من الناس إنما فعلوه لوجه الله تعالى .

وقال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا } (الإنسان : ٨-٩)

بل يجعل الله تعالى شرط نوال الإنسان البر هو الإنفاق مما يحب ويحرص عليه .

وقال تعالى: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ } (آل عمران : ٩٢)

ويمتدح الله تعالى الأنصار الذي آووا ونصروا وأجاروا المهاجرين وقدموهم على أنفسهم .

{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (الحشر: ٩)

أهناك خلق أرفع من هذا ؟ أهناك خلق أرفع من أن تؤثر أخاك على نفسك فيما أنت محتاج إليه ؟!

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١١ ص ٢٧٤ .

ولا توجد نفس بشرية إلا وقد خلقها الله تعالى صالحة لفعل الخير والشر .

وعلى المؤمن الذي ابتلى بصفة ذميمة أن يجاهد هذه الصفة ولا يستسلم لها فيجاهد الجبن بالجهاد في سبيل الله وقول الحق ، ويجاهد البخل بالإكثار من الصدقات ، والأنانية بتقديم يد المساعدة لغيره ففي مجاهدة صفات النفس الذميمة يكون الفلاح والفوز بالجنة .

{ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا } (الشمس : ٩) .

ولن يتغلب الإنسان على فجور نفسه إلا بالإيمان القوى بالله والاعتصام بحبله المتين ، ومخالطة أهل التقوى والصلاح ، ومعرفة أن الدين حسن الخلق ، وأن سوء الخلق طريق جهنم وإن صام وصلى ، أما من استسلم لفجور نفسه ولم يجاهد صفات الشر فيها واتبع هواها، وخالط أهل الفسق والفجور فهذا هو الخاسر الخائب.

{ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا } (الشمس : ١٠)

ويجب أن يكون الإنسان متيقظاً لنفسه في كل وقت وحين ، فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات .

المقصود بجهاد النفس ؟ وكيفيته ؟

المقصود بجهاد النفس ، جهاد الصفات المذمومة في النفس الإنسانية ولا يقصد به المعنى العام للنفس الذي يعنى ذات الإنسان التي توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها والتي تنقسم إلى : مطمئنة ، ولوامة ، وأمارة .

يقول النبي ﷺ : " وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات اللّه عز وجل" حديث صحيح (رواه الطبرانى)

إن مجاهدة النفس أفضل من جهاد الكفار والمنافقين والفجار لأن الشيء إنما يفضل ويشرف بشرف ثمرته وثمرة مجاهدة النفس الهداية { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } (العنكبوت : ٦٩) وكفي به فضلاً وقد أمر اللّه بمجاهدة النفس فقال : { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ } (الحج : ٧٨) (١)

---

(1) الإمام المناوى " فيض القدير شرح الجامع الصغير " ج ٢ ص ٦٣

أما عن كيفية مجاهدة النفس فيكون بإلزامها ما يخالف هواها فإن كانت مُحِبة للمال فأكثر من الصدقة ، وإن كانت مُحِبة للكبر فخالط الفقراء والمسكين ...

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "لَيْس الشديد بالصُّرعةِ إنّما الشّديدُ الذي يملك نفسه عِنْد الغَضَبِ" (متفق عليه)

المراد بالشديد هنا: شدّ القوّة المعنوية وهي مجاهدة النفس وإمساكها عند الشر ومنازعتها للجوارح للانتقام ممن أغضبها، فإن النفس في حكم الأعداء الكثيرين، وغلبتها عما تشتهيه في حكم من هو شديد القوّة في غلبة الجماعة الكثيرين فيما يريدونه منه.

وفيه إشارة إلى أن مجاهدة النفس أشدّ من مجاهدة العدوّ لأنه ﷺ جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أعظم الناس قوّة. وحقيقة الغضب حركة النفس إلى خارج الجسد لإرادة الانتقام. والحديث فيه إرشاد إلى أن من أغضبه أمر وأرادت النفس المبادرة إلى الانتقام ممن أغضبه أن يجاهدها ويمنعها عما طلبت .(١)

ويضرب رسول الله ﷺ لنا الأمثلة في كيفية مغالبة الطبع السيئ ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال : " امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين " (رواه أحمد)

وعن ربيعة بن كعب قال كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي سل فقلت أسألك مرافقتك في الجنة . قال أو غير ذلك ؟ . قلت هو ذاك . قال فأعنى على نفسك بكثرة السجود ." (رواه مسلم)

" فأعنِّى على نفسك " أي كن لي عوناً في إصلاح نفسك وجعلها طاهرة مستحقة لما تطلب فإني أطلب إصلاح نفسك من الله تعالى وأطلب منك أيضا إصلاحها بكثرة السجود لله فإن السجود كاسر للنفس ومذل لها وأي نفس انكسرت وذلت استحقت الرحمة والله تعالى .

وهناك قصة جميلة عن الصحابي الجليل ثابت بن قيس فقد كان هذا الصحابي مجبولا على بعض الصفات الذميمة مثل جهر الصوت بحضرة النبي ، وحب السيادة على قومه ، وحب الاختيال والفخر ، وكان الرجل مؤمناً حقاً فظل يجاهد

(١) الصنعانى" سبل السلام " ج ٤ ص ١٨٣ .

هذه الصفات حتى تخلص منها وبشره النبي بالجنة وأكرمه الله تعالى فاستشهد في معركة اليمامة وإليك قصته .

قال عطاء الخراساني: حدثتني ابنة ثابت بن قيس قالت: لما نزلت : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي } (الحجرات : ٢) دخل أبو ها بيته وأغلق عليه بابه ، ففقده النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله ما خبره ، فقال : أنا رجل شديد الصوت، أخاف أن يكون حبط عملي. فقال ﷺ : " لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير" . قال: ثم أنزل الله: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } (لقمان: ١٨) فأغلق بابه وطفق يبكى، ففقده النبي ﷺ فأرسل إليه فأخبره، فقال: يا رسول الله، إني أحب الجمال وأحب أن أسود قومي. فقال: " لست منهم بل تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ". قالت: فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة فلما التقوا انكشفوا، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلاً حتى قتلاً ، " (رواه الطبراني في الكبير) (١)

أرأيتم كيف أن الصحابي الجليل ثابت ابن قيس قد جاهد نفسه ولم يستسلم لصفاتها الذميمة فعاش حميدا ومات شهيدا ؟

الدين حسن الخلق

ولقد مدح الله تعالى نبيهﷺ فقال :{وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } (القلم : ٤)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً وكان يقول إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً " (رواه البخاري ومسلم والترمذي)

إن حسن الخلق اقرب الناس لمجلس النبي ﷺ في الجنة لأنه كان أقربهم لخلقه ﷺ في الدنيا ، أما سيء الخلق فهو أبعد الناس من النبي في الآخرة .

" إن أحبكم إلى وأقربكم منى في الآخرة مجالس أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى في الآخرة أسوؤكم أخلاقا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون "

(رواه أحمد والطبراني)

---

(١) ورواه القرطبى في تفسيره ج ١٦ ص ٣٠٥ .

"الثرثارون": الذين يكثرون الكلام تكلفاً ."المتفيقهون": الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم ويتفصحون فيه (وانتبه لصيغة التصغير، فهم يتفعلون الفقه والفهم وليسوا من أهله . "المتشدقون" : المتوسعين في الكلام من غير احتياط وتحرز .

قال الحسن البصري : حقيقة حسن الخلق بذل المعروف وكف الأذى وطلاقة الوجه. قال القاضي عياض: هو مخالطة الناس بالجميل والبشر والتودد لهم والإشفاق عليهم واحتمالهم والحلم عنهم والصبر عليهم في المكاره وترك الكبر والاستطالة عليهم ومجانبة الغلظ والغضب والمؤاخذة. (١)

وكثيرة تلك الأحاديث في حسن الخلق منها : " قالوا: يا رسول الله من أحب عباد الله إلى الله ؟ قال: أحسنهم خلقا " (رواه الطبراني وابن حبان)

يا رسول الله فما خير ما أعطى الإنسان قال خلق حسن "(ورواه الحاكم والبيهقى)

وقال ﷺ " ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن فإن الله تعالى يبغض الفاحش البذيء . " حديث صحيح (رواه الترمذي)

إن حسن الخلق هو الفارق بين التدين الحقيقي والزائف فإذا رأيت رجلا كثير الصلاة كثير الصيام كثير الكلام في الدين ومع ذلك سيء الخلق مع أهله وجيرانه ومع رؤسائه ومرءوسيه في العمل فاعلم أن تدينه زائف وهو مردود عليه .

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها . قال : " هي في النار " قال : يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذى جيرانها قال : " هي في الجنة " (رواه أحمد والبزار وابن حبان والحاكم) . " الأثوار من الأقط " : قطع الجبن .

فليس مقياس التدين لحى طويلة ، ولا جلابيب بيضاء قصيرة ، إنما التدين الصحيح حسن الخلق .

فكثير ممن يتظاهرون بالتدين لا يسلم من أذاهم كل من خالطهم وتعامل معهم فهم بلاء في أي مكان حلوا به ، فإن أحدهم ليرمى أبويه بالفسق لأنهما يشاهدان

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي " ج ١٥ ص ٧٨

التلفاز، ويرمى أخته بالفجور لأنها لا تلبس النقاب ، ويرمى أخيه بمعاداة السنة لأنه يلبس ملابس الفرنجة ولا يلبس الجلباب ، ويرمى جاره بالخروج على الدين لأنه لا يرسل لحيته ، ويرمى رئيس دولته بالكفر لأنه لا يحكم بشرع الله ، كما يفهمه هو ، ويرمى المجتمع بالكفر لأنه قبلوا حكمه !!

وهكذا ما يحل صاحبنا في مكان إلا وأشعل المكان ناراً ، وأثار جدالاً ، ومزق جمعا . مما يجعل الناس يتحاشونه ويتجنبون الكلام معه أو يتظاهرون بالاستجابة لما يقول : اتقاء شره ومنعا لجداله .

عن عائشة أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال: " بئس أخو العشيرة ، وبئس ابن العشيرة ". فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه ؟ فقال رسول الله ﷺ : " يا عائشة، متى عهدتنى فحاشاً، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره" (متفق عليه)

وأنا أعرف كثيراً من الناس يهشون لمثل هؤلاء المتنطعين اتقاء لشرهم ، ومنعا لإيذائهم بالقول أو الفعل .

***